

## مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي

## The Notion of Colonialism and the Susceptibility to Colonization in the Malik Bin Nabi Thoughts

خالد فوزي يعقوب المحاسنه

جامعة العلوم التطبيقية (البحرين)، khaled.almhasneh@asu.edu.bh

تاريخ النشر: 2022 / 10 / 10

تاريخ القبول: 2022 / 08 / 09

تاريخ الاستلام: 2022 / 06 / 26

## ملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي كروية اصلاحية يحكمها العمل الممنهج في رصد المشكلات الحضارية ومعالجتها، وقد توصلت الدراسة إلى أن هناك تعاون بين المشكلات النابعة من داخل الفرد المسلم، بالإضافة إلى وسائل الغزو الفكري المستخدمة من الخارج "الاستعمار"، لذا كان مالك بن نبي على إدراك و يقين بأن الاصلاح والتجدد الحضاري لا يتحقق إلا بتخليص الإنسان من رواسب القابلية للاستعمار، وإعدادة وفقاً لأصوله ومصدر إلهامه "الإسلام". كما توصلت الدراسة إلى أن مفهوم الإصلاح يحتاج إلى مقاييس تحدد خطى المصلح في مساره الإصلاحي، وبالتالي يتحدد مقياس عمل المصلح عند مالك بن نبي في بناء وعي الإنسان في كافة المجالات بمدى ارتباط المصلح بمجتمعه، فالارتباط هو من يحقق صلاحية البناء السفلي "المجتمع" وصلاحية البناء العلوي "السياسة".

كلمات مفتاحية: مفهوم الاستعمار، مفهوم القابلية للاستعمار، فكر مالك بن نبي

## Abstract:

This paper attempts to show that the concept of colonialism and the susceptibility to colonialism in the thought of Malik Bin Nabi as a reformist vision governed by systematic work in monitoring and addressing civilizational problems. The most obvious finding to emerge from the analysis is that there are correlations between the problems emanating from within the Muslim community and intellectual invasion that take shape as result of external colonialism". Therefore, there is a possibility that Malik Bin Nabi was aware and certain that reform and civilizational renewal can only be achieved by ridding man of the remnants of colonialism and preparing him according to his origins and source of inspiration, which is the "Islam". Amid these intellectual contexts, the most interesting finding was that the concept of reform needs standards that determine the steps of the reformer in his reform path. Accordingly, it can therefore be assumed that the measure of the reformer's work according to Malik Bin Nabi in building human awareness in all fields is determined by the extent of the reformer's connection to his community. It is almost certain that interconnection is the one who achieves the validity of the lower structures, which is "society" and the solidity of the upper structures, which is "politics".

Keywords : Colonialism, Susceptibility to Colonization, Malik Bin Nabi Thoughts

المؤلف المرسل: خالد فوزي المحاسنه، الإيميل: khaled.almhasneh@asu.edu.bh

## المقدمة

طرح العالم الإسلامي العديد من المشاريع والتصورات النظرية والعملية في الإصلاح والتجديد الحضاري، لكن ومع التنوع الكبير في المشاريع الإصلاحية التي طرحت منذ جهود الرواد الأوائل والتي لا تزال تطرح، إلا أن الأمة ظلت تراوح مكانها في ظل الازدواجية وتششت الجهود بين المؤيد والمعارض كل حسب مرجعيته وتوجهاته الفكرية والسياسية؛ إذ أصبحت كل فئة تدعي أن غيرها أخطأ وضل عن الهدف، وأنها وحدها هي من سيعيد للأمة مكانتها وتجدها الحضاري. وفي ظل تلك الازدواجية، برز مفهوم "الاستعمار" و"القابلية للاستعمار" عند مالك بن نبي كروية إصلاحية يحكمها العمل العلمي الممنهج، إذ ارتكزت دراسته للمشكلات الحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية من زاويتين: داخلية باستخدام معامل القابلية للاستعمار، وخارجية باستخدام معامل: الاستعمار، ذلك لأن المقياس الحقيقي لنجاح الرؤية الإصلاحية عند ابن نبي هو بتناول المشكلات على نحو مزدوج، فإذا كانت النظرة إلى جانب دون الآخر تكون الرؤية سطحية لواقع المشكلات، أما بتناول على نحو مزدوج حينئذ يمكن رصد منبع المشكلة والمضي نحو التغيير والتجديد الحضاري.

واستناداً إلى مفهوم ابن نبي "للاستعمار" و"القابلية له" كمقياس علمي في تناول المشكلات وعلى نحو مزدوج، تتجسد مشكلة الدراسة في تساؤلها الرئيسي وهو: "ما هي المشكلات الحضارية التي تعاني منها الأمة الإسلامية، فهل هي نابعة من مكونات البنية الثقافية للفرد المسلم؟، أم أنها مفروضة عليه بفعل عوامل خارجية؟، وفي حال كانت الإشكالية مركبة ذات بعدين: داخلي وخارجي فما هي سبل تجاؤها من وجهة نظر مالك بن نبي؟".

## لذا تسعى الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

- التعرف على مدى قدرة مقياس معامل القابلية للاستعمار في رصد وتشخيص المشكلات الداخلية.
- التعرف على مدى قدرة مقياس معامل الاستعمار في رصد وتشخيص المشكلات الخارجية.
- معرفة مدى قدرة الرؤية الإصلاحية عند مالك بن نبي في تقديم الحلول القادرة على تجاوز الإشكالية المركبة والمضي نحو التغيير والتجديد الحضاري.

أما عن المنهج، فستعتمد الدراسة على أداة تحليل النص؛ إذ يبين تحليل النص ما تحتويه النصوص من أفكار، وربما يبين في الوقت ذاته السياق الحضاري الذي عايشه صاحبه، ودفعه إلى تسجيل هذا النص منفرداً، أو ضمن نصوص أخرى غيره، كما أنّ تحليل النص تبين مدى قدرة المفكر المعرفية في تقديمه دليله النصي، سواء كان من "الكتاب" أو "السنة"، أم من اجتهادات من سبقه، أو من اجتهاده وتصوره وإدراكه لمقتضيات العصر، وارتباطه بالواقع المعاش، وما يقتضيه الواقع من حلول وبرامج ومداخل وقواعد للانطلاق... الخ، تتناسب مع سمات العصر<sup>1</sup>

### أولاً: المشكلات الداخلية التي ترتبت على إثر معاميل القابلية للاستعمار

تحدث ابن نبي عن "معامل القابلية للاستعمار"<sup>2</sup>، وهو إشارة إلى عوامل الضعف الداخلية والتي مكنت العوامل الخارجية، أي العوامل الداخلية التي اسهمت في انحطاط الأمة وتبعيتها، إذ توجه اهتمام ابن نبي إلى معاميل القابلية، وهو ما أكدده بالقول: "بإن الطريقة الوحيدة لمعرفة أسباب (الكف) هي أن نحدد في أي الظروف نتج عن الاستعمار، أو عن القابلية للاستعمار؛ وبهذه الطريقة يستطيع العالم الإسلامي، أن يحدد الوسائل المناسبة للقضاء على صنوف عجزه التي شلت جميع مشروعاته"<sup>3</sup>، ويضيف بالقول: "أن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها، هي: أنه لكي نتحرر من (أثر) هو الاستعمار يجب أن نتحرر أولاً من (سببه) وهو القابلية للاستعمار"<sup>4</sup>. لذا جاء هذا المبحث لمحاولة معرفة المشكلات الداخلية المعوقة لحرية النهضة على النحو الآتي:

### 1. غياب الرؤية المنهجية

يجسد ابن نبي بدايات حركة الصحوة الإسلامية، التي ترتبت على أثر المواجهة بواقع الحضارة الغربية، وما ترتب عنها من صحوة فيما يتعلق ب واقع تخلفها عن الركب الحضاري الحديث، وفي كيفية الرد على ذلك التحدي، فعلى الرغم من الدور الكبير للأفغاني في البعث والإحياء، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والحرية السياسية، والتخلص من الاستعمار، إلا أنه انتقد الأفغاني لاعتقاده بأن الأفغاني لم يكن متعمقاً في تحليله لواقع المشكلات، أي أنه لم يستند على منهج علمي يجسد المشكلات على أرض الواقع، ومن ثم يعمل على تنفيذها، ويضرب مثلاً على جهود الأفغاني في إصلاح القوانين، إلا إن ذلك الإصلاح بتصور ابن نبي لم يبدأ من الأسفل بإصلاح الإنسان وتخليصه من أشكال الضعف التي ترسخت في ذاته مند ما

يسميه بعصر ما بعد الموحدين. وعلى الرغم من اختلاف محمد عبده عن الأفغاني في رؤية عبده للمأساة الإسلامية على أنها مشكلة ذاتية نابعة من داخل الإنسان، في حين نظر إليها الأفغاني على أنها مشكلة سياسية، إلا أنه انتقد آلية الإصلاح التي بدأ بها محمد عبده، بجهوده التي انصبت نحو علم الكلام لا بعقيدة المسلم<sup>5</sup>.

فالمسألة بتصور وإدراك ابن نبي ليست في الإصلاح النظري للعقيدة، وإنما بإعادة فاعليتها في النفس، بمعنى أن المشكلة بتصوره ليست في تعليم المسلم عقيدة هو يمتلكها بالأصل، وإنما بإعادة الدور الوظيفي للدين في نفس ووجدان المسلم<sup>6</sup>. وهنا يجسد ابن نبي واقع حركة العلماء المسلمين الجزائريين، وبالتحديد بعد غياب ملهمها الأول "عبد الحميد بن باديس" بالاهتمام بالدفاع عن الإسلام بالجدل الكلامي والخروج عن القاعدة التي بدأ بها بن باديس بإصلاح الإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد: 11)<sup>7</sup>.

وقد كان مما أخذه على "الحركة الحديثة"<sup>8</sup> أن أصحابها لم يتصلوا بأصول الفكر الغربي، ولم يدرسوا جذورها ومراحل تطورها، أي أنهم اهتموا بالشكل لا بالمضمون<sup>9</sup>، كما يرى بأنهم لم يدركوا - برؤيتهم السطحية- بأن الحضارة لا تصدر كما تصدر المنتجات<sup>10</sup>، ويستدل هنا بالحركة الحديثة حينما استلمت مقاليد الحركة السياسية بالجزائر، إذ ظلت الحركة منتمية روحياً إلى الغرب، بحيث اهتموا بتحديث النظام السياسي من خلال نقل النموذج الأوروبي دون وعي وإدراك بأنها أنظمة لها بيئتها وثقافتها الخاصة بها<sup>11</sup>. لذا فإن محنة العالم الإسلامي بتصور ابن نبي، هي محنة مركبة ترجع إلى سببين: "فمن ناحية في الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام، فقدت التصاقها بالواقع... ومن ناحية ثانية فإن أفكار أوروبا التي شيدت الحضارة الأوروبية فقدت بدورها الفعالية في العالم الإسلامي المعاصر... ونحن اليوم نقاسى هذا التدهور المزدوج، فالأفكار المخدولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقام رهيب"<sup>12</sup>.

**وهنا نستنتج بمدى قدرة استراتيجية ابن نبي الإصلاحية القائمة على العمل العلمي المنهج**

من خلال تشخيصه لمواطن الداء والذي يتجسد بـ "غياب الرؤية المنهجية" للتيارات الإصلاحية بنظرها الجزئية للمشكلات التي يحكمها جدلية التبرير لا المواجهة، إذ أن تحميل مسؤوليته على الداخل، فهو بذلك يحمل الإسلام مسؤولية كل هذه الأوضاع ويتجاهل حقيقة أن الاستعمار مسئول عن النصيب الأكبر من الفوضى

التي تسود العالم الإسلامي اليوم، كما أن إلقاء اللوم كله على الاستعمار وهو ما يشبه عملية تخدير لهذه الشعوب تلهيها عن مسؤوليتها تجاه الداخل بتوجه الانظار إلى الخارج فحسب، ولكن ابن نبي لا يطرح العلاقة الجدلية بين "الاستعمار" و"القابلية له" بالصورة الحتمية، وإنما يطرح بالمقابل مصطلح "المفهومية"<sup>13</sup> ليجسد حقيقة أن إدراك المسلم سواء كان قائدًا ومصلحًا... الخ لثقافته وأصول نهضته "الإسلام"، وبإدراكه أيضًا لخطط ووسائل الاستعمار في سلب هذا الوعي ما هي إلا تأهيل للمسلم في محاولة تخليصه من مركب النقص "الانحطاط" و"التبعية" على حد السواء. أما عما هو غائب عن النص، فهو في موقف ابن نبي من إسهامات "الأفغاني" و"محمد عبده"، والتي ارتكزت على الرؤية المجزئة لواقع المشكلات، بحيث لم يؤخذ النص باعتباره البيئة المحيطة للأفغاني، بما تحتويه من عوامل لها قدرتها في تحديد مساره الإصلاحية؛ إذ أن تنقل الأفغاني في أرجاء العالم الإسلامي، وعلاقاته المضطربة بالحكام في كثير من البلاد التي عاش فيها، كان لها الأثر الأكبر في تحديد اهتماماته وألوياته، كما أنّ النص أغفل إسهامات محمد عبده والتي اقتصر على علم الكلام، ولعله - بسبب ظروف وجود ابن نبي في الجزائر وفرنسا- لم تتح له فرصة الاتصال بهذا التراث والذي تضمن العديد من الجوانب كإصلاح اللغة العربية، والأزهر والإفتاء، وتحديد الحياة بصفة عامة، والإسلام دين العلم والمدنية، والسياسة... الخ<sup>14</sup>.

## 2. المشكلات الداخلية التي ترتب على إثر معاملي القابلية للاستعمار:

انطلاقًا من رؤية مالك بن نبي لاستراتيجيته تناول معوقات النهضة والتي يحكمها الرؤية العلمية والمنهجية في عملية التقصي والتشخيص بهدف تحديد موطن الخلل، تصنف المشكلات المعوقة لحركة النهضة على النحو الآتي:

### • المشكلات الدينية:

فالمشكلة الدينية في تصور ابن نبي قديمًا وحديثًا ما هي إلا نتيجة ضعف الأساس المفاهيمي لماهية الإسلام، فالجهل بحقيقة الدين جعل المسلم في الماضي يتصور الدين على أنه شكل من أشكال الدروشة، والتصوف المنحرف، والخرافات والأوهام، ووعود المديرين، والكسل، والتواكل... الخ<sup>15</sup>، كما هي المسألة بتصور ابن نبي حينما تأثر المفكر المسلم بمنطق العمل عند الغرب دون تمييز بين "أصالة الأفكار" و"فعاليتها"<sup>16</sup>؛ إذ أن المسلمين لم يفقدوا فعاليتهم لتمسكهم بالإسلام بل لهجرهم لروحه الحقيقة<sup>17</sup>. ويستدل

بمنطلق العمل في الإسلام بما بثه القرآن الكريم من حالة توتر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا كِتَابَ اللَّهِ﴾<sup>18</sup> بحيث اقتزن الفكر بالعمل، أو بعبارة أكثر دقة حددها ابن نبي بقوله: "عندما توافقت الأفكار الموضوعية مع الأفكار المطبوعة فتجانس الإيمان بالعمل من دوافع القلب ومن مسوغات وتوجيهات العقل ومن حركات الأعضاء"<sup>19</sup>. وهنا يتأسى باتجاه التيار الديني إلى (نزعة المديح)<sup>20</sup> والفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي أصابه إزاء سلطان الثقافة الغربية، وهنا لا ينكر ابن نبي دور هذه النزعة في المحافظة على الشخصية الإسلامية، إلا أنه أنكر مخاطرها النفسية التي ترتبت بفعل مركب النقص تجاه الآخر، حيث أضحت نزعة المديح في ظل غياب الوعي الديني مبرراً للكسل والتواكل والتعلق بالماضي<sup>21</sup>.

كما من المشكلات الدينية بتصور ابن نبي، افتقاد المصلح لعنصر (النقد الذاتي)، وهي نتيجة يجسدها ابن نبي بانفصال إنسان ما بعد الموحدين عن عقيدته ومثله الأعلى كقوة محرّكة وموجه للحياة، بحيث افتقد القائد الموجه سواء من الناحية الدينية أو السياسية خاصية النقد الذاتي، وهو العنصر الذي يصوره تعالي رجل الدين وغروره باعتقاده بتأديته لفرائض الصلاة أنه قد أكمل واجبه تجاه الدين ومجتمعه، ويستدل على أهمية الدور التوجيهي في عملية التغيير بمحاسبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لنفسه واستغفاره الدائم إلى الله، في حين أن القائد ورجل الدين - بالوقت الحالي - هو القائم على عملية التوجيه على الرغم من افتقاره الروحي والنفسي، وهو ما ترتّب عليه من تجميد للفكر وقفل لباب الاجتهاد<sup>22</sup>.

وبالتالي فهو يرى بأن المشكلة التي تواجه المسلم اليوم، ما هي إلا تجسيد لما عبر عنه الرسول (صلى) بقوله: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، وقد استخلص ابن نبي حاجة المسلم في الوقت الحالي من واقع دراسته لدورة تداول الحضارة الإسلامية، إذ بدأت نهضتها بمخاطبة القرآن الكريم لضمير المسلم، إلا أن هذه الدفعة بتصوره قد انحسرت بموقعة صفين بانفصال السياسة عن الضمير، ومن ثم انتهت بانفصال الإنسان عن ضميره ومثله الأعلى، لذا فهو يرى بأن حاجة المسلم في الوقت الحالي، هي بإعادة تنظيم تعليم القرآن بصورة تجعل الضمير المسلم يرى الحقيقة القرآنية كما لو كانت جديدة<sup>23</sup>، وثاني ما يحتاجه، بتحديد رسالة المسلم الجديد في العالم بأن يكون ممثلاً وشاهدًا على حد السواء<sup>24</sup>.

وتحليلاً لذلك الطرح، تبين للباحث عارضاً من عوارض تهديد العقيدة، حيث أثبت ابن نبي وبإسناد الحجة التاريخية والواقعية المتمثلة في مسألة "التضليل الديني"، والتي مورست قديماً على أيدي معادي الإنسانية كالطبقات الروحية والصوفية... الخ، واتخاذها الدين كوسيلة لتشويه حقيقة الإسلام وتحويله من

أيديولوجيا محرّكة إلى أيديولوجيا راكمة، كما هو ذات التضليل الذي مورس حديثًا نتيجة التأثير المزوج للموروث القديم الذي لم يصف والمستحدث الذي لم يتم تنقيته، وما ترتّب عليه من انفصال بين انفصال الفكر والعمل، وهو ما عبر عنه ابن نبي بانبهار المفكرين بفعالية الأفكار الغربية "المادية" دون تمييز بين أصالة الأفكار وفعاليتها، فالفكرة - في تصور بن نبي - حينما تخرج إلى النور فهي إما صحيحة أو باطلة، وحينما تكون صحيحة فإنها تحتفظ بأصالتها إلى آخر الزمان، ولكن هذه الفكرة رغم صحتها قد تفقد فاعليتها، لذا فهو يرى بأن المسلمين لم يفقدوا فعاليتهم لتمسكهم بالإسلام، وإنما لهجرهم لروح الإسلام ودوره الحركي.

### • المشكلات الفكرية:

فمن المشكلات الفكرية التي كان لها أثر القابلية للاستعمار في تصور وإدراك ابن نبي، مشكلة (عدم تماسك عالم الأفكار)<sup>25</sup>، وهي حقيقة يجسدها ابن نبي من واقع الفراغ الفكري الذي بات يعيشه المثقف المسلم، بحيث فرضت الثقافة الغربية جاذبيتها وتأثيرها على نفس ووجدان تلك الطبقة المتأثرة، ما جعلها فريسة تحت تصرف الاستعمار، وهو جانب مرضي في تصور ابن نبي يلامس الجانب الثقافي، أما عن النوع الأمر المعزز لهذا الجانب<sup>26</sup>، فهو ما يطلق عليه بن نبي لفظ "الأفكار القاتلة"<sup>27</sup>، وهي الأفكار المستعارة من الغرب دون مقياس<sup>28</sup>، ويقابلها بما يسميها بـ"الأفكار الميتة"<sup>29</sup>، وهي الأفكار القديمة التي لم يعد لها ارتباطها بالواقع<sup>30</sup>، وهكذا تعبر الأفكار القاتلة من جانب والأفكار الميتة من جانب آخر بتصور ابن نبي المعبر الحقيقي لمأساة البلاد المستعمرة بواقع انحطاطها وتبعيتها<sup>31</sup>.

وتعتبر الأفكار الميتة الموروثة عند ابن نبي أشد خطرًا من الأفكار القاتلة<sup>32</sup>، ويستشهد بتجربة مصدق في إيران، إذ إن فشل تلك التجربة بتصور ابن نبي لم يكون نتيجة الاستعمار، وإنما نتيجة الموروث القديم من الأفكار الميتة والتي أضعفت المجتمع في كيانه الداخلي فتشتت، أي أنها - حسب تعبير ابن نبي - سقطت تحت ضربات القابلية للاستعمار، وبالتالي فهو يرى بأن "المعركة الحقيقية ليست بالثورات ضد الاستعمار ولكن المعركة في داخل البلاد مع القابلية للاستعمار، تلك القابلية المتمثلة في بعض الشخصيات الإقطاعية وبعض العادات الرجعية"<sup>33</sup>. كما أن الفكرتين عند ابن نبي، تعيشان جنبًا إلى جنب وتشكلان انعكاسًا لتوجهات الطبقة المثقفة فكريًا، فالأفكار الميتة - حسب تقديره - هي المسؤولة عن توجيه الإنسان في اختياره وانتقائه الخاطئ للأفكار القاتلة<sup>34</sup>. ويستدل هنا وعلى نحو مقارن بالمقارنة بين نموذج المثقف

المغترب ونموذج المفكر الواعي، إذ استخدم ابن نبي الاختلاف على المستوى الفردي بالإشارة إلى وعي وإدراك محمد إقبال في تعامله مع الثقافة الغربية، حيث تمكن إقبال من تصفية الأفكار الميتة المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة، وهو ما انعكس على توجهاته في عملية انتقائه واختياره من الآخر بتجنب الأفكار القاتلة وتلمسه للأفكار الحية فانعكس على نحو إيجابي في محاولة إقبال لإعادة بناء الفكر الإسلامي<sup>35</sup>.

كما من المشكلات الفكرية التي يراها ابن نبي هي مشكلة (النزعة الذرية)<sup>36</sup>، والمقصود بالنزعة الذرية في تصور وإدراك ابن نبي هو عجز العقل عن التعميم بميله نحو تجزئة المشكلات بشكل فردي، وتعتبر النزعة الذرية - من وجهة نظر ابن نبي - صورة عامة تصيب الفكر في مراحلها الأولى، كما هو الحال في أوروبا قبل ديكرت، والعالم الإسلامي بعد عصر ابن خلدون بتوقف العقل عن الجهد العقلي<sup>37</sup>. ويشير مفهوم النزعة الذرية حسب استخدام ابن نبي إلى مركب النقص الذي بات يتصف به المثقفون المسلمون في رؤيتهم السطحية بتجزئة المشكلات وطرحها بصورة منفصلة عن بعضها البعض واعتبارها كأساس لتحقيق النهضة<sup>38</sup>.

أما عن المشكلات المترتبة عن اختلال الأفكار والرؤية السطحية للمشكلات، فيحددها ابن نبي بظهور نزعة الميل نحو (التكديس أو الشبيئية)<sup>39</sup>، فالمقياس العام بتصوره لبناء الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس، بمعنى لا يمكن لأي حضارة أن تتبع روحها وأفكارها وثروتها وأذواقها وسائر القيم والمعاني التي لا تلمس باليد<sup>40</sup>، وهو ما يعني بأنه في حال شراء منتجات حضارة ما، فهي تأخذ الهيكل، والجسد، ولكنها لا تأخذ الروح التي صنعت وأبدعت الحضارة، لذا فهو يؤكد على الالتباس وسوء الفهم لدى الدول الإسلامية باعتقادها بأنه في حال امتلاك منتجات الحضارة، فإنها بذلك قد وصلت إلى مرحلة التحضر، ولكنها في حقيقة الأمر لم تصل إلى مرحلة التحضر، وإنما أضحت حضارة شبيئية قائمة على التكديس لا البناء<sup>41</sup>.

كما أنّ النزوع إلى التكديس والشبيئية على مستوى الأفكار أبرز (مشكلة الأمية)، والأمية بتصور ابن نبي ليست مجرد الجهل بالقراءة والكتابة، وإنما هي في منظورها الحضاري تنطبق على بعض المتعلمين، لذا فرق ابن نبي بين نوعين من الأمية: أمية القراءة والكتابة، وأمية المتعلمين، وهو بتقدير ابن نبي لا يقل خطراً عن أمية الجاهلين بالقراءة والكتابة إن لم يزد عنهم خطراً، وهو ما أشار إليه بالقول: "فالذي يتعلم ويرى حصاد تعلمه من منظار ذاتي كأن يصبح شخصية بارزة، أو يزيد من كسبه، أو يتألق بعنوان الشهادة. الخ،

من دون أن يتناول العلم بغاية بناء المجتمع، إنما يعكس عن جهل حضاري وهو أدهى وأمر من الجهل الأجددي، وهو ما يطلق عليه اسم الحرفية في الثقافة"<sup>42</sup>.

**وتقييمًا لما سبق،** تتأكد قدرة استراتيجية ابن نبي الإصلاحية في رصده لإشكالية الاغتراب الفكري التي تجسدت بفعل التشبث بالماضي بما يحتويه من موروث قديم وتعلق بالشكل لا بالمضمون، وهي نتيجة ترتبت بفعل الفراغ الفكري وابتعاد الأفكار عن مصدر إلهامها الأصلي "الإسلام" حيث أضحت أفكارًا ميتة لا تتصل بالواقع، وهو ما قادها إلى حالة أخطر بتقليدها واقتدائها بالأفكار الغربية الهدامة، ولعل ضعف الأساس الفكري لدى الطبقة المثقفة وتقليدها واغترابها الفكري وخلطها بين ما هو دين وبين ما هو عادات وتقاليد بالية هو ما أكده ابن نبي بافتقاد الطبقة العامة من الناس للمنهج وعنصر التوجيه ما دفعها نحو الفهم الخاطيء بتصور الحضارة والتحضر على أنها تكديس للأشياء وتعلق بمظاهر الاستهلاك فحسب، والمحصلة هو تمهيد الطريق أمام الاستعمار بتحول المجتمعات إلى مجتمعات مستهلكة لا منتجة.

#### • المشكلات السياسية:

يتحدد المعيار الحقيقي للسياسة في تصور وإدراك ابن نبي على أساس: "مشروع لتنظيم التغيرات المتتابة في ظروف الإنسان وأوضاع حياته، هذه العلاقة التي تحدد وضع الفرد باعتباره غاية كل سياسة، تعتبر الفرد أيضًا عاملاً لتحقيق تلك الغاية"<sup>43</sup>، أي يتحدد مفهومه للسياسة على أنها مشروع لتخطيط الحياة، إذ أن الأزمة السياسية الراهنة بتصور ابن نبي ما هي إلا نتيجة الجهل بالقوانين الأساسية التي تقوم عليها الظاهرة السياسية، والتي تتطلب أن نضع في الاعتبار حقيقة الارتباط والتواصل الدائم بين الحكومة ووسطها الاجتماعي، فالحكومة الآلة المسيرة لوسطها الاجتماعي، كما أنها ليست بمعزل عن وسطها فهي تتأثر به كذلك<sup>44</sup>، ويقول في هذا الصدد: "إن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع وأأسسه، لا تستطيع إلا أن تكون دولة تقوم على العاطفة في تدبير شئونها، وتستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطاتها"<sup>45</sup>.

وانطلاقًا من معياره للعمل السياسي الذي يقاس بمدى الارتباط بالمجتمع، تتحدد المشكلات السياسية في تصور بن نبي فيما يسميها بالسياسة "الارتجالية أو سياسة "البوليتيكا"<sup>46</sup>، ذلك لأن العلمي في تصور ابن نبي في صحة السياسة أو انحرافها يحدد بمدى ارتباط الفكر بالعمل، إذ ثمة علاقة ترابط يراها ابن نبي تجمع الطرفين واختلال تلك العلاقة يعتبر بمثابة إخلال للجانب العملي، وبما أن رؤيته للسياسة على أنها

الجانب التخطيطي للحياة، فهي بذلك التصور تعتبر الفكر الموجه لماهية هذا العمل، وإذا كان التفكير السياسي مبني على ما يسميها ابن نبي "ارتجالية" فهو مؤشر على انحرافها عن المسار الحقيقي للسياسة<sup>47</sup>.

ومن هذا الفهم للسياسة يعد الإنسان عند ابن نبي وسيلة السياسة وغايتها، ومن هنا تتوجه السياسة إلى الإنسان بمعينين: بصفته هو الفاعل الذي يحقق التغييرات المطلوبة، وبصفته هو الموضوع المطلوب تغييره، ويقدم تصورًا على سبيل المثال على سياسات العالم الإسلامي واستراتيجية نضالها ضد الاستعمار، فالسياسة كجوهر عند ابن نبي هدفها الأول هو تغيير وضع الإنسان كمستعمَر وكقابل للاستعمار، من ثم يقيس هذا التصور على واقع سياسات العالم الإسلامي حيث اتجهت في كفاحها للاستعمار تطالبه بتغيير وضع المستعمرات دون أن تتجه إلى الفرد المستعمَر لتطالبه بتغيير وضعه الحضاري لكي لا يعود قابلاً للاستعمار، إذ من الزيف عن الطريق الأقوام كما يقول ابن نبي أن: "يطلب الأسير مفتاح سجنه من سجنه"<sup>48</sup>.

فمن أولويات العمل السياسي في تصور وإدراك ابن نبي، البدء في عملية إعداد الإنسان بصورة يكون فيها متوافقًا مع إمكاناته النفسية والمادية، إلا أنه يرى في نفس الوقت بأن واقع السياسات في العالم الإسلامي لم تستند على دراسة دقيقة للواقع هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم تستند إلى ما يقدمه هذا الواقع من إمكانيات لتغيير الذات؛ ذلك لأن رجل السياسة برأيه لم يبحث عن جوهر المشكلات وإنما تعلق بشكلها فيما إذا كان شكل السياسة ملكيًا أو جمهوريًا... الخ دون العمل على إعداد الإنسان وتحليصه مما ترسخ بداخله من قابلية لأن يكون مستعمراً<sup>49</sup>.

**وتقييماً لما سبق،** يمكن القول هنا بمدى قدرة الاستراتيجية التي استخدمها ابن نبي في تجسيد الأزمة السياسية التي يعاني منها الواقع الإسلامي نتيجة الجهل بحقيقة صلة السياسة بالوسط الاجتماعي كآلة مسيرة له "تأثر" و"تأثر" به في آن واحد، وهو ما جسده ابن نبي وفقاً لرؤيته للمقياس الحقيقي للسياسة القائم على أساس ربط "الفكر بالعمل" و"القول بالفعل" تبعاً لمقتضيات المرحلة المعاشة؛ وذلك لأن السياسة بتصوره هي الموجه الحقيقي للحياة، أما عن غاياتها فهي في إعداد الإنسان وتحليصه من رواسب الموروث المترسخ من سياسات الاستعمار، وبمحاولة التعمق في الواقع وما يقدمه الواقع من إمكانيات قادرة على بناء الإنسان وتحليصه من مرض قابليته بأن يكون مستعمراً، ولكنه يرى بأن السياسة قد خرجت عن مقتضيات المرحلة وغايات وجودها الحقيقي بانتهاجها لسياسات ارتجالية لا يحكمها التخطيط والمنهج العلمي.

## • المشكلات الاقتصادية:

تتأسس المشكلات الاقتصادية في تصور وإدراك ابن نبي على قضية (الوعي الاقتصادي)، ذلك لاعتقاده بأن المشكلة الاقتصادية في دول العالم الثالث لها موروثها القديم الذي ترسخ منذ عهد الاستعمار، إذ كان عمل المستعمر - في تصور ابن نبي - منذ البداية يصب دائمًا في مصلحة المستعمر، بحيث فقد العمل طابعه الأخلاقي، فأضحى المستعمر العميل والمستعبد والتابع لاقتصاد المستعبد، كما يرى بأن تحررها السياسي لم يخلصها من سمة الاستعباد والتبعية لاقتصاد الآخر<sup>50</sup>، فالمسألة في تصور ابن نبي أضحت مشكلة داخلية نابعة من الذات، تتبلور بشكل واضح عندما تطرح المشكلة الاقتصادية في تصور وإدراك علماء الاقتصاد في دول العالم الثالث، بحيث تأخذ المشكلة حتمية الحل بالاستناد على تجربة الاقتصاد الرأسمالي أو الاشتراكي دون أن تأخذ باعتبارها الجوانب النفسية والعقائدية "الدينية" في هذا المجتمع، وهو ما يراه سببًا مباشرًا في فشل العديد من المحاولات المقتبسة من الآخر<sup>51</sup>.

كما من المشكلات التي يراها في المشروعات الاقتصادية في الدول النامية على وجه العموم والإسلامي على وجه الخصوص ربط مسألة العمل بمسألة المال بصوره تجعل العمل مقيدا بمدى توفر الشروط المالية<sup>52</sup>؛ فالقضية عند ابن نبي ليست في إمكان مالي ولكنها في تعبئة الطاقات أو ما يسميها برأس المال الاجتماعي في مشروع اقتصادي تحركه إرادة حضارية مستشهدًا في ذلك بالتجربة الإسلامية في عهد الرسول(صلى)، والتجربة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، والتجربة الصينية في ثورتها الثقافية، والتجربة اليابانية في ثورتها الصناعية<sup>53</sup>. كما يؤكد على أن هذه القاعدة لا تؤثر على الدول الرأسمالية المتقدمة لامتلاكها لرأس المال العالمي، بل يرى بأنها لا تخالف سياساتها ومبادئها، على عكس الدول المتخلفة في حال اعتمادها على هذه القاعدة سيجعل إمكانها الاقتصادي أمرا محكوما تحت سيطرة وهيمنة المؤسسات المالية العالمية تبت سياساتها ومبادئها كما تريد<sup>54</sup>.

وتحليلًا لما سبق، يمكن القول بأن الاستراتيجية الإصلاحية عند ابن نبي قد رصدت منبع المشكلة الاقتصادية بطرحه للرؤية العامة للاقتصاد العالمي الذي لا يخرج عن عالمين: عالم الإنتاج وعالم استهلاك، وفي نقده لأساس المشكلة الاقتصادية بغياب عنصر الوعي الاقتصادي، وهي ظاهرة مرضية لها موروثها القديم منذ عهد الاستعمار، بمحاولة الاستعمار في بث روح التبعية على صعيد القوة، وعلى الصعيد النفسي بزرع

سمة التبعية في نفس ووجدان المسلم، وهو ما جعل رؤية المسلم لواقعه الاقتصادي لا تخرج عن العلاقة التي رسمها الاستعمار، علاقة المنتج بالمستهلك، والسيد بالتابع.

### • المشكلات الاجتماعية:

تتحدد المشكلات الاجتماعية في تصور وإدراك ابن نبي في قضية (اختلال التوازن بين الأشياء والأشخاص والأفكار)، فعلى الرغم من إعطائه الأولوية لعالم الأفكار في عملية توجيه العوالم الأخرى إلا أن هذه العلاقة في تصويره تحكمها علاقة جدلية تأخذ بها إما في حالة من التوافق التام وإما في حالة من الاختلال التام وهو ما يسميه بـ(الطغيان)<sup>55</sup>:

أما عن (طغيان الأشياء) أي النظرة التي تستند في مقياسها لنجاح أو فشل قضية ما انطلاقاً من نزعة كمية لا نوعية، وهو ما يراه ابن نبي بحالة مرضية تنذر بطغيان (الشيئية والأشياء)، وهنا يجسد ابن نبي الصورة التي وصل إليها العالم الإسلامي في رؤية المسلم وتقييمه لمحيطه استناداً على نزعة الكم لا النوع كقياس في حكمه عليها، ويضرب مثلاً على رؤية الرجل وتقييمه للآخرين التي بات يحكمها المظهر لا الجوهر، أي أن حكمه على الآخرين لم يعد يستند على أساس العلم أو الجهد والعمل وإنما بما يمتلك من أشياء كامتلاكه للسيارة والمنزل والمكتب... الخ،<sup>56</sup>.

أما عن مشكلة (طغيان عالم الأشخاص) وفي هذه الحالة يحتل الأشخاص قمة سلم القيم بحيث يترسخ المثل الأعلى للجماعة في صورة شخص ما، لذا فهو يرى بأن ظاهرة التعلق بالأشخاص ظاهرة تتنافى مع مبادئ الإسلام، إذ حذر القرآن الكريم جماعة المسلمين من هذا الفهم الخاطئ صراحة بقوله تعالى: ﴿وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾<sup>57</sup>، فالمشكلة في تصويره هي في إدراك المسلم ورؤيته الثاقبة أو ما يسميها بـ(أفكاره المطبوعة) قد ابتعدت عن مصدر إلهامها وتأملها وعلمها "تعاليم القرآن" أو ما يسميها بـ(الأفكار المطبوعة) وهذا الفراغ جعل المسلم يقوم بعملية تنحية واستبدال أفكاره المستمدة من تعاليمه الدينية بتجسيدها في ذات شخص، وهو ما أدى إلى إلحاق الضرر في فهم تعاليمه الدينية وخصوصاً عندما تعطى المهام في أيدي أناس غير أكفاء في حمل هذه الأمانة<sup>58</sup>.

أما عن (طغيان الأفكار) وهي تجسيد لحالة المثقف وتعلقه بالأفكار الوافدة مما أفقده خاصية الارتباط بواقع مجتمعه وتلمس آلامه ومشكلاته، والمحصلة هي حرمان المجتمع من الأفكار وعنصر التوجيه<sup>59</sup>.

أما عن نتائج هذا الاختلال في تصور وإدراك ابن نبي، فهي تحدد الصورة النهائية التي أفرزها الاختلال في ظهور قضية ما يسميها ب(تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية)، فالمجتمع - كما يرى ابن نبي- يتراوح في درجة وحدته وتماسكه بين حدين: الحد الأول يكون فيه المجتمع في ذروة وحدته وتماسكه الاجتماعي، وأما الحد الثاني فهو في حالة التفسخ التام للمجتمع، لذا فهو يرى بأن اختلال العلاقة بين أفراد المجتمع لها بالغ الأثر في اختلال أفكار المجتمع وتوجهاته، وفي كيفية استخدامه لوسائل المتاحة، أو بتعبير أدق: "فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجهما السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء، والسقوط الاجتماعي الذي يصيب عالم الأشخاص يمتد لا محالة إلى الأفكار وإلى الأشياء، في صورة افتقار وفاقاة"<sup>60</sup>. لذا فهو يرى بأن الابتعاد عن فهم الدين كان سبباً في تمزق الأمة وانحطاطها، ذلك لأن الدين هو مركب القيم الذي يخلق العلاقة الاجتماعية ويؤلف بين القلوب، ف"كلما ضعفت العلاقة الدينية تزداد درجة الفراغ الاجتماعي بين الأفراد في محيط هذا المجتمع... وعلى عكس ذلك نجد أنه عندما تقوى العلاقة الدينية... فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل"<sup>61</sup>.

**وتقيماً لما سبق،** يمكن القول بأن منبع المشكلات الاجتماعية عن ابن نبي من الخلل الاعتقادي لحقيقة الفكرة الدينية ودورها الحركي وانفصال المبدأ عن الحياة، مما أدى إلى اختلال المنظومة المحيطة بالإنسان بطغيان عالم الأفكار بحيث تحولت الأفكار عن مصدر إلهامه الأصلي "القرآن"، ولتعويض مركب النقص استندت على الأفكار الوافدة "القاتلة" بالإضافة إلى الأفكار الميتة التي لم تصف من الرواسب القديمة، وتتنازع الوافد القاتل بالمورث الميت اختل توازن سلم القيم إما بالمغالاة نحو عالم الأشخاص لتعويض النقص الحاصل بافتقار "المثل الأعلى"، وإما بالمغالاة نحو عالم الأشياء، أي أن سلم القيم بافتقاده المثل الأعلى بات يتأرجح بين التعلق بالأشخاص أو بالأشياء كمقياس للتقييم الكمي لا النوعي.

### ثانياً: المشكلات الخارجية التي ترتبت على إثر معامل الاستعمار

تحدد المشكلات الخارجية للنهضة في تصور وإدراك ابن نبي ب"الاستعمار" وأدواته في عملية الصراع الفكري، إذ قسم ابن نبي معوقات النهضة إلى قسمين: الأول باسم "معامل الاستعمار"، والثاني أطلق عليه اسم "معامل القابلية للاستعمار"<sup>(62)</sup>، ولكن ما يعيننا هنا هو معامل الاستعمار، وهو المعامل الذي يستخدمه ابن نبي كعامل خارجي للإشارة إلى ما يفرضه الاستعمار على حياة الفرد من عامل سلبي بتحطيم الفرد

المستعمَر بوضع العراقيين أمامه، وهو ما عبر عنه بقوله: "المعامل الاستعماري هو هدم لجوهر الفرد ومحو لعبقريته بالانتقاص من قيمته، وتحطيم لقواه الكامنة فيه"<sup>63</sup>.

لذا فهو يحدد نوعين من الاستعمار: الأول وهو ما يطلق عليه بـ(الاستعمار المحافظ)، وهو الاستعمار الذي لا يتدخل بشكل مباشر في شؤون حياة المستعمَر بإبقائه لبعض مظاهر الحرية لأبناء المستعمرات، والثاني (الاستعمار الاستبدادي)، وهو الاستعمار الذي يتدخل مباشرة في أدق تفاصيل حياة المستعمَر، كما أن عمله برأيه ليس بالعمل الارتجالي وإنما عمل ممنهج وفق مجامع علمية ومؤتمرات دولية ترسم للاستعمار سياساته وخطته في الهدم الأخلاقي والمادي<sup>64</sup>.

ويعتبر الاستعمار الاستبدادي في تصور ابن نبي عنصراً جوهرياً في فوضى العالم الإسلامي وتشتت مسار نهضته، ومقياً لخطره ووسائله التي تبدلت، يستخدم بالمقابل مصطلح الصراع الفكري لا بمعنى الصراع الأيديولوجي وإنما إشارة للمنهج الذي يستخدمه الاستعمار لتشويه الوعي عند شعوب المستعمرات، ومنعها من امتلاك الوعي الصحيح الذي يقودها للتخلص من الاستعمار والقابلية له<sup>65</sup>، أما عن أسباب اختياره للمفهوم كعنوان رئيسي في كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" ذلك لاعتقاده بأن طرق ووسائل الاستعمار قد اختلفت عما كانت عليها في الماضي؛ إذ كانت سياساته في السابق قائمة على مبدأ القوة العسكرية باستخدام الأسلحة الذرية والصواريخ العابرة للقارات... الخ، إلا أن سياساته أخذت أبعاداً أعمق ظهرت بشكل أوضح - من وجهة نظر ابن نبي - منذ الحرب العالمية الثانية، جاء ذلك بعد إدراك قادة السياسة الدولية بمدى حجم الخسائر المترتبة في حال نشوب حرب يحكمها التطور الهائل للطاقة النووية، وهو ما يجسده ابن نبي في تحول استراتيجية الاستعمار من الاستخدام المطلق للقوة إلى الاستخدام المطلق للصراع الفكري<sup>66</sup>.

وكمدخل لمحاولة معرفته لتلك الوسائل صنف أشكال السياسة في البلاد المختلفة إلى صنفين من السياسات: الصنف الأول، السياسة القائمة على ما يسميها بـ(الأفكار المجردة)، وأما الصنف الثاني، وهي السياسة القائمة على ما يطلق عليها بـ(الأفكار المجسدة)، والصنف الأول في تصور ابن نبي هو تطور عن الصنف الثاني، ولكن لكل منهما اعتباراته الخاصة المستمدة من جذوره وفروعه النفسية<sup>67</sup>.

وطبقاً لتصنيفه لأشكال السياسات، يتحدد عمل الصنف الأول في تصور ابن نبي، بالرد العلمي على الاستعمار من خلال محافظة السياسة على الأفكار والمعاني التي يحملها كل فرد من الجماعة كإدراكه

مثلاً لمعاني الحرية والاستقلال والتخلص من الاستعمار. الخ، بحيث لا ترتبط بذات شخص وإنما تبقى حية في ضمير الشعب، ونجده في هذا المعنى يقول: "فالسياسة التي تتطور تبعاً ل(أفكار) مجردة تعانق بحكم الضرورة الضمير الشعبي، ومن ناحية أخرى فإنها تلتزم بالمبادئ والمقاييس والقواعد التي تتحكم في سيرها، فإنها بذلك تحمل في طبيعتها مبدأ التعديل الذاتي الذي يفرض عليها رقابة من نفسها، معدلاً بذلك حركتها واتجاهها عند الحاجة... وهذه المراجعة تحميها من تدخل أي عامل أجنبي يحاول تغيير مجراها ومراسها"<sup>68</sup>، أما عن عمل الصنف الثاني للسياسة، فهو قائم على أساس ربط الفكرة المجردة بذات الشخص المجسد لها، ويضرب مثلاً على ألمانيا في عهد هتلر بحيث تجسدت الفكرة بشخص هتلر، فأصبح تطور الفكرة ونموها وتنظيمها أمراً مرتبطاً بذات الشخص يسيرها وفقاً لأهوائه ومصالحه الشخصية<sup>69</sup>.

وعطفاً عما سبق، يبدأ عمل الاستعمار - من وجهة نظر ابن نبي - بمقاومة الفكرة المجردة، لإدراكه بدرجة قوتها عندما تتمثل لدى الضمير الشعبي بحيث تصبح من الثوابت والمسلمات التي لا يمكن تجاوزها، ومن هنا يبدأ الصراع الفكري بسعي الاستعمار ومحاولة التجسيد من أجل السيطرة. ويضرب مثلاً على ذلك، إذ قد ينادي شخص ما بفكرة مجردة قد تكون مثلاً الحرية أو الاستقلال والمقاومة، ومن ثم تصبح هذه الفكرة المجردة عاملاً محرّكاً للشعوب، وبدلاً من مقاومة الفكرة يعمل الاستعمار على الربط بين الفكرة والشخص بصورة تجعل الشعب يقدس هذا الشخص، ومن ثم يستخدم الاستعمار وسائل القوة والمال ضد الشخص المجسد، فإذا ما توافق مع السياسات الاستعمارية في أمور معينة تتحقق سيطرة الاستعمار على مجسد الفكرة وضميرها معاً<sup>70</sup>.

وتحليلاً لما سبق، يمكن القول بأن الرؤية العلمية التي استخدمها ابن نبي في الإصلاح والتغيير قد تمكنت من رصد تغير استراتيجية الاستعمار في انتهاجه لسياسات خفية غير معلنة وبأسلوب منهجي بغرض المسخ والتغريب والتبعية والصراع الفكري بين الأنا والآخر، والمحصلة هدم قدرات الإنسان ومقوماته المادية والمعنوية، فوسائل الاستعمار الحديث برأيه لم تعد بالمعارك المعلنة ك"استخدامه للسلاح النووي والأسلحة الثقيلة... الخ"، وإنما أصبحت حرباً فكرية هدفها هدم الإنسان وتحطيم قدراته التغييرية، وتحويله إلى إنسان مفقود الوعي والإدراك لماهية ما يدور حوله، وتوظيفاً لتلك الغاية يستخدم ابن نبي نظرية الكهف لأفلاطون كحجة عقلية للإشارة إلى أغراض الاستعمار ووسائله الخفية بصناعة إنسان غائب يعيش حالة من الأوهام والمعارك المفتعلة بصورة تجعله يعيش خارج عصره ومقتضيات المرحلة التي يعيشها، كما قد استخدم مصطلح

"الصراع الفكري" واعتبره كركيزة لعنوان كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" ليس بمعنى "الصراع الأيديولوجي" وإنما كحجة لغوية تفيد بأن أوراق اللعبة قد تغيرت وبأن المرحلة القادمة هي مرحلة التلاعب بالأفكار. كما أشار الى وسائله المستخدمة التي تغيرت في الغزو الفكري من خلال: "صناعة الطبقة المثقفة المغتربة"، و"استخدام الدين"، و"طبقة المستشرقين"، و"الصراع المفاهيمي"<sup>71</sup>.

### ثالثاً: آليات الإصلاح والتغيير والمضي نحو التجدد الحضاري

تحدد المشكلة الحضارية بتصور وإدراك كلا المفكرين ببناء وعي الإنسان، فالمعايير التي تركز عليها النهضة تأخذ شقين: "مستقل" و"التابع"، والمستقل "العقيدة" فهي أمر ثابت، إلا أن المشكلة الحضارية تتجسد بالمعيار التابع وهو الإنسان، وبالتالي تتحدد آليات بناء الإنسان على نحو شامل بحيث تحتوي كافة المجالات: "الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية" على النحو الآتي:

#### • الإصلاح الديني:

يعتبر الدين عند ابن نبي من أهم العوامل المؤثرة في تكوين الحضارات، ومن أقوى أركانها، فالحضارات - من وجهة نظره- "الهندوسية، والبوذية، والموسوية، والمسيحية، والإسلامية... فكل هذه الحضارات شكلت تركيبها المتألف الأصلي للإنسان، والتراب، والوقت في مهد فكرة دينية"<sup>72</sup>، إذ إن مفهوم الدين في الإسلام بتصور وإدراك ابن نبي، لم يكن مجرد اعتقاد فحسب، بل أنه مصدر للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والجماعية، وهو إلى جانب هذا كله، فرائض لها أثرها في توثيق العرى وشد الأواصر والشرائع والنظم والمؤسسات في المجتمع<sup>73</sup>.

لذا فهو لا يحدد عمل المصلح الديني بعلم التفسير، أي أنها ليست بإثبات وجود الله وإنما بإعادة "تجديد الصلة بالله"<sup>74</sup> بحيث تصل الفكرة القرآنية مباشرة إلى ضمير المسلم ليتسنى لها مخاطبة جوانب فكره ووجدانه<sup>75</sup>، وبالتالي تتحدد آلية المصلح الديني: ب"استخدام الآية القرآنية في الظروف النفسية عينها التي كان يستخدمها النبي(صلى) وصحابته من بعده، أي باستخدامها وكأنها فكرة مستوحاة، لا فكرة محررة مكتوبة... فالحقيقة القرآنية تتجلى بأثرها المباشر على الضمير، وبتأثيرها في عالمي الأشخاص والأشياء"<sup>76</sup>، وتعبير أكثر دقة بالتركيب بين الناشط والفكر والعمل كل على حد السواء<sup>77</sup>.

وتحليلاً لما سبق، يمكن القول بأن منهجية ابن نبي العلمية قد تمكنت من تقديم آليات تحقيق وعي وإدراك الإنسان لماهية الدين على نحو متدرج، حيث بدأت عنده باعتبار الوعي الديني من العوامل المؤثرة في تكوين الحضارات، ومن ثم ينعطف إلى تمييز الوعي الديني بالإسلام الذي لم يكن مجرد اعتقاد فحسب، وإنما هو إيمان مقترن بالعلم والمعرفة، بحيث انعكس على سلوكيات الحياة الفردية والجماعية، كما كان عاملاً في توثيق العرى وشد الأواصر، ومصدرًا لحاجات الإنسان المادية والمعنوية، ومن ثم أخذ يحدد المقياس الحقيقي لعمل المصلح الديني، بحيث لم يشترط فيه أن يكون عالماً في الفقه؛ فالغاية بتصوره ليست بتعليم المسلم عقيدة هو يعرفها "وجود الله"، وإنما بمحاولة تجديد صلته بالله، وذلك لا يكون - في تصور ابن نبي - إلا بارتباط المصلح بالناس، اقتداءً بما فعل الرسول (صلى).

### • الإصلاح الفكري:

يرى ابن نبي بأن أي مجتمع ناشئ متهيئ للنهضة، فهو يحتوي على عناصر تقليدية وأخرى حديثة، وهي في العادة مستعارة من مجتمعات سبق وأن مضت في طريقها نحو النهضة، وعليه فهو يرى بأن تحقيق الانسجام مع العناصر المستعارة لا يمكن أن يتأتى إلا بالإبداع والتركيب، أي أن عملية الإبداع والتركيب تتطلب مجموعة من الشروط يختصرها ابن نبي بمدى ملائمتها ونفعها لبيئتها الجديدة، ويستشهد بالواقعين الإسلامي والمسيحي، حيث واجه المجتمع الإسلامي مشكلة التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، حينما ظهرت حاجة الدعوة إلى الصلاة، كما واجهها المجتمع المسيحي في السابق فعالجها بصوت الأجراس، إلا أن الرسول (صلى) وصحابته قد اختاروا طريقة النداء بالصوت، وهنا يرى ابن نبي بأن المجتمع الإسلامي اقتبس فكرة النداء من المجتمع المسيحي، ولكنه قام بإبداع وسيلته التي تتوافق مع إمكانياته وحاجاته<sup>78</sup>، كما يستدل بما قام به الفارابي حينما أخذ بفلسفة أرسطو بعد إفراغها وتسكينها بطابعها الإسلامي، كما يستشهد بما قام به توماس الإكويني حينما نزع عن فلسفة أرسطو طابعها الإسلامي، لكي تتوافق مع وسطها الجديد "المجتمع المسيحي"<sup>79</sup>.

وبناءً على ذلك، فهو يرى بأن عملية الاقتباس التي يستند عليها العالم الإسلامي - في الوقت الحالي - لا يحكمها مقياس، وهو ما ترتب عليه من خلط وفوضى في كافة الميادين الفكرية والسياسية... الخ، إذ أن مسألة الاغتراب الزماني والمكاني التي بات يعيشها المفكر المسلم بتصور ابن نبي، ما هي إلا نتيجة

الخليط بين الموروث القديم الذي لم يصفأ، والأفكار المستعارة التي لا يحكمها مقياس؛ فالمقياس الحقيقي الذي يحكم العلاقة بين "الأصالة" و"المعاصرة" بتصور ابن نبي ليست بمعنى إنكار الآخر، أي أن المطلوب من العالم الإسلامي ليس بالعزلة وقطع العلاقة مع الحضارة الغربية، وإنما المطلوب برأيه بأن تنظم هذه العلاقة بنظرة متعمقة لا تغفل عن مدى ملائمة ما هو مستعار، بحيث تكون منسجمة مع إمكانياته وحاجاته، وتعتبر أدق أن تكون العلاقة المتبادلة بين الطرفين علاقة الإبداع والابتكار لا التقليد<sup>80</sup>.

**وتحليلاً لما سبق، يمكن القول بأن رؤية ابن نبي العلمية استندت على حجة "مرجعية" تسلسل آليات تحقيق وعي وإدراك الإنسان بتحديدته لإشكالية الازدواجية الفكرية عبر جدلية "الأصالة" و"المعاصرة"<sup>81</sup>، وهي من المشكلات الرئيسية المعوقة لحركة التجدد الحضاري في العالم الإسلامي نتيجة افتقاد المقياس الحقيقي المحدد لماهية الفرق بين "الأصالة" و"المعاصرة" وما ترتب عليها من مواقف متباينة لا تتضمن حلولاً، وعليه يحدد ابن نبي الإصلاح الفكري بتأصيل رؤية الإنسان لمفهوم الأصالة على أنها القدرة على الإبداع والتركيب، أي قدرة الإبداع والتركيب لما هو مستعار بما لدى "الأنا" و"الآخر" بصورة تجعله متوافقاً ومنسجماً مع بيئته الجديدة، لذا فهو يرى بأن الفهم الخاطئ لمفهومي "الأصالة" و"المعاصرة" جعل البعض يقتبس من الغرب دون مقياس في ذلك، وهو ما ترتب عليه من خلط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية والسياسية... الخ.**

**أما عن المسكوت عنه، وما هو غائب عن النص، فهو في قضية التوفيق بين "الأصالة" و"المعاصرة"<sup>82</sup>، فالعملية لا تقتصر على الوعي لماهية ما هو مقتبس وكيفية التعاطي معه فحسب، وإنما العملية محكومة أيضاً بمعرفة النوايا، إذ لا بد من التفريق بين "أصحاب التوفيق" و"أصحاب التلفيق"<sup>83</sup>؛ فالتلفيق - وفقاً لأصحاب المرجعية الغربية - دون الوقوف عند الأسس والقواعد والكليات الأساسية التي تحكم عمليات التوفيق، ستيح لأصحابه فرصة الانتقاء من الإسلام وتراثه بما يخدم أفكاره وتوجهاته المسبقة، وهي عملية لها خطورتها في التغريب في ظل غياب القراءة الجيدة وفقاً لمعطيات اللغة والسياق التاريخي وتطبيق المناهج الحديثة على الإسلام ومصادره. كما أنّ التلفيق قد يكون - وفقاً لأصحاب المرجعية التراثية - مفترضاً فيه الأفضلية المطلقة دون الفطنة أو الأخذ بفقهِ الواقع وما يتضمنه من معطيات المتجددة، وهو ما سيؤدي إلى الفشل في الاستجابة أو الإجابة على مشكلات الواقع، كما قد يكون التلفيق ناتجاً عن حسن النية والتعجل في تقديم الحلول.**

## • الإصلاح السياسي:

يستمد ابن نبي الإصلاح الحقيقي للسياسة من أصول العلاقة بين الحاكم والمحكوم من الإسلام، أي أنها علاقة متبادلة قائمة على مبدأ الثقة، فالثقة بين الحاكم والمحكوم هي من تؤدي إلى صلاحية التركيب السفلي "المجتمع" وصلابة التركيب العلوي "السياسة"، لذا فهو يرى بأن فلسفة السمع والطاعة في السياسية الإسلامية قائمة على أساس قانون الالتزام الخلقي الذي عبرت عنه الشريعة، إلا أن هذا الالتزام ينقطع إذا ما انعدمت الرابطة بينهما وبين هذا الالتزام<sup>84</sup>، ويستشهد بالأسس النظرية التي رسخها الرسول (صلى) في حجة الوداع بقوله: "يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلا بالتقوى..."<sup>85</sup> وهنا يجسد ابن نبي الآثار الملموسة لتلك النظرية وكيف ترجمت على أرض الواقع، ففي الجانب النظري صيغ المبدأ الذي يؤسس الحكم الإسلامي في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾<sup>86</sup>، وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>87</sup>، وفي موطن آخر بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾<sup>88</sup>، أما عن الجانب العملي وهو ما يراه قد ترسخ بشكل واضح حينما تسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مقاليد الحكم في تحديده لهذه الطاعة في خطبته المشهورة بقوله: "...من رأى منك في أعوجاجاً فليقومني..."<sup>89</sup> كما يراه بسلوك المحكوم بقول سلمان الفارسي: "والله لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناك بسيوفنا"<sup>89</sup>.

وبذلك يحدد مسار الإصلاح السياسي بطبيعة العلاقة المباشرة بين السياسة والحياة، فالأولى تخطيط للثانية؛ إذ أن الأزمة السياسية الراهنة بتصور ابن نبي ما هي إلا نتيجة الجهل بالقوانين الأساسية التي تقوم عليها الظاهرة السياسية، والتي تتطلب أن نضع في الاعتبار حقيقة الارتباط والتواصل الدائم بين الحكومة ووسطها الاجتماعي، فالحكومة الآلة المسيرة لوسطها الاجتماعي، كما أنها ليست بمعزل عن وسطها فهي تتأثر به كذلك<sup>90</sup>، ويقول في هذا الصدد: "إن السياسة التي تجهل قواعد الاجتماع وأسسها، لا تستطيع إلا أن تكون دولة تقوم على العاطفة في تدبير شئونها، وتستعين بالكلمات الجوفاء في تأسيس سلطتها"<sup>91</sup>.

وعليه يأتي تأكيده على أن يكون الإصلاح السياسي كـ"علم اجتماع تطبيقي لا مجرد نشاط فوضوي"<sup>92</sup>، فالمطلوب عند ابن نبي، هو أن تكون السياسة قائمة على منهج قادر على تحليل العناصر التي ستركب الحضارة، والسياسة المطلوبة تقوم على مبدأين يصوغهما ابن نبي على النحو الآتي:

- "إتباع سياسة تتفق مع الأركان الأولية للحضارة: الإنسان، والتراب، والوقت"<sup>93</sup>، والهدف الأساسي من هذا المبدأ هو تصفية الاستعمار والقابلية للاستعمار، لكي تتمكن الذات المسلمة من استخدام قدراتها ووسائلها المتوفرة، فالمسؤولية السياسية في تصور ابن نبي هي مسؤولية الإنسان الملتزم بأصوله الثقافية، والسياسة الناجحة برأيه هي بتصفية الإنسان المسلم من الأفكار المستوردة سواء من الشرق أو الغرب فهي ترسيخ لكرامته وحرية واستقلاله، كما أنها تجديد للأفكار وفتح باب الاجتهاد في مواجهة تحديات العصر<sup>94</sup>.

- "مرحلة التغيير المتدرج لما بين أيدينا من وسائل بدائية كيما نحيلها وسائل أكمل، فتكون قادرة على تعديل مختلف ظروف البيئة شيئاً فشيئاً"<sup>95</sup>، ومن نتائج هذه المرحلة في تصور ابن نبي القضاء على الاستعمار في كافة أشكاله، هو برأيه عمل مشترك بحيث يستلزم من السياسة أن تعمل على توجيه الطاقات الاجتماعية من أجل بناء المجتمع سواء في الداخل أو في الخارج وفقاً لأصوله وثقافته الخاصة به، كما يتطلب بأن يكون العمل على نحو متبادل بين الدولة والفرد بالاتفاق على الصيغة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي ستسود أرض الواقع<sup>96</sup>.

وتحليلاً لما سبق، يمكن القول بأن رؤية ابن نبي العلمية قد تمكنت من تقديم حجة الإصلاح بتسلسل آليات تحقيق وعي وإدراك الإنسان بالجواهر الحقيقي لمفهوم السياسة والذي يتحقق بتكامل الثقة المتبادلة بين "الحاكم" و"المحكوم"، وهي مسيرة تبدأ عند ابن نبي في رؤيته للمقياس الحقيقي للسياسة القائمة على توجيه حياة الإنسان بتخليصه من القابلية للاستعمار للقيام بعبء مسؤولياته في الوجود، إذ تعتبر السياسة القائمة على أساس الارتباط بالناس سبباً رئيسياً في بث الثقة المتبادلة بين الحاكم والمحكوم، وهي فلسفة يستمدّها من الأصول الإسلامية المجسدة لطبيعة العلاقة التي يتجاوزها طرفان: صلاحية التركيب العلوي "السياسة"، وصلاحية التركيب السفلي "المجتمع"، وعليه لم يهتم بأشكال النظام السياسي بقدر ما اهتم بمضمونها بارتباط البناء العلوي بالبناء السفلي.

### ● الإصلاح الاقتصادي:

يعتبر الإنسان في تصور ابن نبي، محور النهضة والحضارة ومحركها الرئيسي نحو التقدم، لذا فهو يرى بأن المشكلة الاقتصادية لا يبدأ حلها بالوسائل المادية وإنما بالمقياس الحقيقي الذي يبدأ بإعداد الإنسان تربويًا واقتصاديًا. الخ، أي إن العامل الأساسي لاستمرار التقدم الاقتصادي هو الإنسان بما يقدم من جهد وعمل<sup>97</sup>، لذا يتحدد مقياسه للإصلاح الاقتصادي بمعالجة مشكلة الإنسان أولاً، أي أنها لا تحدد بنقص المال أو رأس المال. الخ، وإنما بافتقاد العالم الإسلامي الاستعداد العقلي الذي يؤهله نحو التقدم.

ووفقاً لأوليواته في الإصلاح الاقتصادي بتقديم الوعي على المال، والأفكار على الأشياء، تتحدد آلية الوعي الحقيقي للإنسان بمفهوم الاقتصاد بحيث يكون مفهوم الإنسان للاقتصاد موجهاً بثقافته وأفكاره، ونابغاً من داخل قدراته البشرية والمادية، إذ أن عملية الإقلاع الاقتصادي بتصور وإدراك ابن نبي تتطلب وعي وإدراك الإنسان للأسس التي يتركز عليها الاقتصاد، أو بتعبير ابن نبي تتطلب عملية تكيف بين "المعادلة الاقتصادية كنظرية" و"المعادلة الشخصية"، وأي تجربة لا ندرك حقيقة هذه العلاقة فهي بتصوره تجربة محكوم عليها بالفشل<sup>98</sup>، ويستدل هنا باليابان وألمانيا اللتين كانتا - بعد الحرب العالمية - في حالة عوزة هائلة (للأشياء) ولكنهما كانتا غنيتين (بالأفكار) وهو ما مكنتهما وبسرعة قياسية من إعادة بنائها لهيكلها الاقتصادي، بخلاف ما يراه بالمجتمع الاندونيسي مثلاً الذي كان غنياً - حاله كحال البلدان الإسلامية - بالمواد الأولية المطلوبة للبناء ولكنها لم تحقق نجاحاً لافتقارها للأفكار<sup>99</sup>.

أما عن مقياسه في تحقيق الإصلاح الاقتصادي، فهي لا تتأسس على نظريات الغرب الاقتصادية التي يراه مزيداً من التسلط والتبعية والتخلف الاقتصادي، وإنما هي بالنظر الشاملة التي تربط الاقتصاد بالجدور الثقافية، أي على أساس الترابط بين القيم الاقتصادية والقيم والأخلاقية انطلاقاً من تعاليم الإسلام<sup>100</sup>، ففي الجانب الاقتصادي استخدم ابن نبي مفهومي الواجب والحق، وقدمها على النحو الآتي: "واجب + حق = صفر"<sup>101</sup>، وعند استخدامه لهذه العلاقة الجبرية الأخلاقية في الميدان الاقتصادي أخذت المعادلة الاقتصادية شكلها الآتي: "إنتاج + استهلاك = صفر"<sup>102</sup>، إلا أنه تجاوز النظريات الحديثة بترجيح كفة الواجب على الحق، أي بترجيح كفة الإنتاج على الاستهلاك، مقتدياً في ذلك بأفعال الرسول (صلى) كفضية المتسول الذي أتى يسأل الرسول (صلى) الحاجة فأشار إلى الرجل بالعمل، وهو ما يراه في أولوية الواجب على الحق، والإنتاج على الاستهلاك<sup>103</sup>.

وتحليلاً لما سبق، ويمكن القول بأن جوهر الأزمة الاقتصادية التي تعيشها الاغلبية من الدول الإسلامية بالوقت الراهن تتجسد بقلبها لموازين الإصلاح الاقتصادي باستنادها على ثقافة الاستهلاك والبحث عن الطرق السهلة لا بالعمل الجاد القائم على أساس ترسيخ ثقافة الإنتاج، وما يؤكد بأن الأزمة الاقتصادية في اغلب الدول الإسلامية لا تتعلق بامتلاكها للإمكانيات المادية، وإنما بافتقادها للأفكار، فعلى الرغم من الثروات التي تمتلكها الدول الإسلامية، إلا أن محور اقتصادها ظل قائماً على ثقافة الاستهلاك فحسب دون البدء بالعمل والإنتاج، كما أن الأزمة انتقلت إلى عقلية المجتمع بحيث اختفت روح المبادرة والإبداع والإنتاج، وبات التعلق واضحاً بالمسالك والطرق السهلة كالبحث عن الأعمال المريحة لا المنتجة، وهو ما يستدعي بالبدء بعملية إعداد الإنسان انطلاقةً من المقاييس الحقيقية للإمكان الاقتصادي، أي بتزكية الإنسان كرياضة على أن يكون منتجاً لا مستهلكاً.

### • الإصلاح الاجتماعي:

تتحدد رؤية ابن نبي للمجتمع ليس بمجرد جمع من الأشخاص تجمعهم غريزة العيش في الجماعة، وإنما هذا الجمع في تصوره يتأسس على مجموعة من الثوابت التي تضمن له الاستمرارية والحركة في التاريخ، وعليه فلم يأخذ بالتصور القائل بأن المجتمع: "عبارة عن أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين واحدة ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة"<sup>104</sup> لافتقاده للعنصر الوظيفي، لا بل يراه تفسيراً لا يعطي تصوراً محدداً بحجم المهام والمسؤوليات الملقاة على عاتق المجتمع، هذا من جانب، ومن جانب آخر فهو لا يقدم تفسيراً لمستوى التنظيم الداخلي للمجتمع، وفي المقابل كان له تصوره القائل بأن المجتمع: "هي الجماعة التي تغير دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير"<sup>105</sup>. وبناءً على ذلك التصور، تحدد عناصر حركة المجتمع في تصوره انطلاقةً من: "الحركة وإنتاج أسباب الحركة مع اشتراط العلم بالهدف"<sup>106</sup> بمعنى تحديد الاتجاه كعنصر مراقب على الحركة وإنتاج وسائل الحركة، ذلك لإدراكه بأن مسيرة تطور الجماعة قد يعثرها الخطأ والصواب، وفي كلتا الحالتين فهي بحاجة لتحديد اتجاهها كعنصر مراقب على أعمالها<sup>107</sup>.

وانطلاقةً من رؤية للإطار العام ينتقل إلى الخاص بالتركيب الداخلي للمجتمع، فالمجتمع في تصوره يتكون من ثلاثة عوالم: "عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء"<sup>108</sup>، كما أن إنجاز أي عمل يعتمد

في تصوره على العوالم الثلاثة التي تعتبر ساحة الفعل الإنساني، إلا أن رؤيته لهذه العوالم لا تعمل بشكل فردي وإنما ضمن عمل مشترك طبقاً لنماذج أيديولوجية مستمدة من أصولها وثقافتها الخاصة بها، وهو ما يسميه بـ(عالم الأفكار)، ويتم تنفيذها بوسائلها المتاحة وهو ما يسميه بـ(عالم الأشياء)، ومن أجل غاية يحددها أفراد المجتمع، وهو ما يسميه بـ(عالم الأشخاص)، فالمقياس الحقيقي - عند ابن نبي - الذي يقيم المجتمع لا بما يمتلك من وسائل مادية وإنما بما لديه من إبداع وابتكار، ويضرب مثلاً على ألمانيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية مدمرة، حيث خسرت وسائلها المادية بالكامل ولكنها استطاعت تجاوز ذلك الدمار بما تملكه من تفكير وابتكار، ولكن الأفكار برأيه لا تؤدي وحدها الدور الوظيفي حينما تتفكك الروابط الاجتماعية أو ما يسميها بـ(شبكة العلاقات الاجتماعية)، ويستدل بالإسبان الذين هزموا مسلمي الأندلس، إذ كانوا أفقر من المسلمين على نحو ما فكرياً، ولكنهم كانوا على نحو أفضل بالترايط الاجتماعي<sup>109</sup>، أما عن مركب القيم المعزز للتماسك والوحدة فهو بالعقيدة<sup>110</sup>.

وتحليلاً لما سبق، لم يأخذ ابن نبي بالمؤشرات الغربية بتمركزها على عالم الأشياء وتضخم عالم الأشياء على حساب العوالم الأخرى، إذ أن فاعلية حركة هذه العوالم بتصوره لا تتم على نحو متفرق، وإنما تتوافق في عمل مشترك طبقاً لنماذج أيديولوجية تستمد تصورها من مصدر إلهامها الأصلي "القرآن وهو ما يسميه بـ(عالم الأفكار)، ويتم تنفيذها بوسائلها المتاحة وهو ما يطلق عليه بـ(الأشياء)، ومن أجل غاية يحددها أفراد المجتمع ذاته وهو ما يحدده بـ(عالم الأشخاص)، بمعنى أن عملها لا يكون إلا على نحو مشترك، وذلك لا يكون إلا بتفعيل ترابطها الاجتماعي، أما عن العنصر المحقق لهذا الانسجام فهو بالعقيدة "مركب القيم"، لذا فهو لا يحدد مقياس صلاح المجتمع بما يمتلك من أشياء وإنما بما يحمل من أفكار، أي الأفكار المستمدة من العقيدة الإسلامية بما تتضمنها من قيم لها دورها في تحديد وجهة الأشخاص في ماهية استخدامها لوسائل حياتها المادية بصورة لا تخرجه عن غايات الوجود.

## الخاتمة

في نهاية هذا الموضوع يبدو أنه من الضروري استجماع نتائجه في ضوء التصورات الفكرية الموسوعة في طي هذه الدراسة، ولاسيما عنوانها المرسوم بـ"مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي"، كاستراتيجية اصلاحية استخدمها لدراسته المشكلات الحضارية التي تعاني منها الامة الاسلامية برؤية علمية وعلى نحو مزدوج. إذ تساءل البحث عن منبع المشكلات الداخلية التي ترتبت على إثر معامل القابلية

للاستعمار، فتبين مدى الرؤية الشمولية عند ابن نبي على مستوى جوانب الظاهرة ومكوناتها حيث إنَّ الظاهرة البشرية متعددة الأبعاد والنواحي التي تؤثر فيها وتحدد وجهتها وحركتها، وتقسم هذه الأبعاد إلى البُعد الديني والفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي... الخ، اما عن مكوناتها فهي قائمة على "التوازن"، إذ أكد الإسلام على معادلة التوازن عبر مسيرة تطوره دون الانحراف عن ذلك الطريق القويم، وهو ما يدعونا إلى وسطية الإسلام بحيث يعد توازن الإسلام ووسطيته، والحفاظ عليه في توازن وعلى نحو دائم معيارًا للتقدم في كافة مجالات الحياة.

لذا كانت المشكلات ابن نبي أساسًا في الخلل الاعتقادي لحقيقة الفكرة الدينية ودورها الحركي وانفصال المبدأ عن الحياة، مما أدى إلى اختلال المنظومة المحيطة بالإنسان بطغيان عالم الأفكار بحيث تحولت الأفكار عن مصدر إلهامه الأصلي "القرآن"، ولتعويض مركب النقص استندت على الأفكار الوافدة "القاتلة" بالإضافة إلى الأفكار الميتة التي لم تصف من الرواسب القديمة، وبتنازع الوافد القاتل بالمورث الميت اختل توازن سلم القيم إما بالمغالاة نحو عالم الأشخاص لتعويض النقص الحاصل بافتقاد "المثل الأعلى"، وإما بالمغالاة نحو عالم الأشياء، أي أن سلم القيم بافتقاده المثل الأعلى بات يتأرجح بين التعلق بالأشخاص أو بالأشياء كمقياس للتقييم الكمي لا النوعي. وبناءً على ذلك، يمكن أن نستنتج بأن ابن نبي كان مدركاً أن تجاوز المشكلات الداخلية في كافة مجالاتها لا يتحقق إلا بتخليص الإنسان من رواسب القابلية للاستعمار، وإعداده وفقاً لأصوله ومصدر إلهامه "العقيدة الإسلامية" برؤيته المتوازنة بطلب الدنيا كوسيلة لا كغاية لنيل الآخرة.

وتساءل البحث عن المشكلات الخارجية التي ترتبت على إثر معامل الاستعمار، فتبين مدى تغير فلسفة الاستعمار في انتهاجه لسياسات خفية غير معلنة وبأسلوب منهجي بغرض المسخ والتغريب والتبعية والصراع الفكري بين الأنا والآخر وباستخدام العديد من الوسائل كاستخدامه للدين والتغريب والاستشراق وصراع المفاهيم... الخ. لذا يمكن القول بأن هناك دمج وتعاون بين "الداخل" و"الخارج"، أي أن هناك تعاون بين المشكلات النابعة من داخل الفرد المسلم، بالإضافة إلى الوسائل المستخدمة من الخارج "الاستعمار"، إلا أن ضعف الداخل كان سبباً في تمكين الخارج، وهو ضعف ترتب باختلال الأساس الاعتقادي لدى الإنسان المسلم، لذا كان ابن نبي على إدراك ويقين التجدد الحضاري وتجاوز مركب الازدواجية الذي أضحى يعيشه المسلم من "الداخل" لا يتحقق إلا بتخليص الإنسان من رواسب القابلية للاستعمار، وإعداده وفقاً لأصوله ومصدر إلهامه "العقيدة الإسلامية" برؤيته المتوازنة بطلب الدنيا كوسيلة لا كغاية لنيل الآخرة.

كما تساءل البحث عن آليات التجاوز والمضي نحو التغيير والتجدد الحضاري، فتبين مدى الرؤية الشمولية للظاهرة البشرية عند ابن نبي، إذ تحدد المشكلة الحضارية بتصوره ببناء وعي الإنسان، فالمعايير التي تركز عليها عملية التغيير والتجدد الحضاري تأخذ شقين: "مستقل" و"تابع"، والمستقل "العقيدة" وهو أمر ثابت، إلا أن المشكلة الحضارية تتجسد بالمعيار التابع وهو الإنسان، وبالتالي يركز مشروع الحضاري عند ابن نبي على أساس تزكية الإنسان، وهو ما يعني بأن الآليات المحققة للإصلاح والتجدد يجب أن تقوم على أساس تزكية وعي الانسان بغايات وجوده، فوجود الإنسان ليس بمعنى الوجود الذي يشترك به الجميع بالمأكل والمشرب والدوق والاستهلاك والانتاج.. الخ، وإنما الوجود الحقيقي يتحقق بفاعلية وإرادة الإنسان، لذا تتحدد آليات بناء الإنسان على نحو شامل بحيث تحتوي كافة المجالات: "الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية"، إلا أن مفهوم الإصلاح بتصوره يحتاج إلى مقاييس تحدد خطى المصلح في مساره الإصلاحية، وبالتالي يتحدد مقياس عمل المصلح ببناء الإنسان وتحقيق وعيه وإدراكه بكافة الجوانب الدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بمدى ارتباطه بمجتمعه، أي أن يكون مدرّكاً لمقتضيات العصر ومتطلباته وربط الفكر بالعمل، أي أن عملية الإصلاح الشامل بكافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الخ تتحقق بالدمج والتعاون بين "الأسفل" و"الأعلى"، بـ"بصلاحية البناء الفوقي" و"صلاية البناء السفلي"، وهو أمر لا يتاح إلا بارتباط المصلح أو القائد... الخ بمجتمعه.

الهوامش:

1 - لمزيد من التفاصيل عن أداة تحليل النص أنظر: د. مصطفى منجود "إشكاليات منهجية عامة في دراسة الفكر السياسي"؛ (في) د. نادية مصطفى، ود. سيف الدين عبد الفتاح، **دورة المنهجية الإسلامية في العلوم الاجتماعية حقل العلوم السياسية نموذجاً**، (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، 2000)، ص 92-93. أنظر أيضاً: د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، ود. علي جمعة محمد "إشراف"، د. طه جابر العلواني "تقديم"، **بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**، ج1، (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998)، ص7.

2 - لمزيد من التفاصيل عن المفهوم انظر: مالك بن نبي، **شروط النهضة**، سلسلة مشكلات الحضارة، عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط9، (دمشق: دار الفكر، 2009)، ص149-160.

3 - المرجع نفسه، ص95.

4 - المرجع نفسه، ص94-95.

- 5 - مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، سلسلة مشكلات الحضارة، عبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص51-53.
- 6 - المرجع نفسه، ص54.
- 7 - مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مرجع سابق، ص ص26-29.
- 8 - لمزيد من التفاصيل انظر: مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص63.
- 9 - المرجع السابق، ص ص66-69.
- 10 - مالك بن نبي، **في مهب المعركة: إرهابات الثورة**، سلسلة مشكلات الحضارة، ط7، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص ص114-115، 116-120.
- 11 - انظر: مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، مرجع سابق، ص ص71-72. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، **بين الرشاد والتهيب**، سلسلة مشكلات الحضارة، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص27.
- 12 - مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، سلسلة مشكلات الحضارة، د. بسام بركة و د. احمد شعبو "ترجمة"، ط9، (دمشق: دار الفكر، 2009)، ص ص159-160.
- 13 - أستخدم ابن نبي مصطلح "المفهومية" مقابل مصطلح "القابلية للاستعمار" بهدف وعي وإدراك الإنسان لغايات وجوده، أي الوعي بمدى المسؤوليات الملقاة على عاتق المسلم في تحقيق مسؤولياته في الاستخلاف بتحقيق الإعمار في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية... الخ، وانطلاقاً من حقيقة المنهج الإسلامي القائم على الوسطية ومبدأ اقتران الأخلاق بالعمل، وهو مفهوم لم يُعرّف من قبل ابن نبي وإنما هي حقيقة استخلصها الباحث من واقع قراءته الجامعة لمؤلفات المفكر.
- 14 - استعان الباحث في محاولة تحديد ما هو غائب عن النص بالعديد من المراجع بهدف تأصيل ما لم يأخذه النص بالاعتبار. لمزيد من التفاصيل عن إسهامات جمال الأفغاني ومحمد عبده انظر: د. عبد المقصود عبد الغني، ود. علي أبو المكارم "مقرر المؤتمر"، **الإسلام ومشروعات النهضة الحديثة**، كتاب المؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية، (القاهرة: كلية دار العلوم، قسم الفلسفة، جامعة القاهرة، 2001)، ص ص284-287. أنظر أيضاً: د. حورية توفيق مجاهد، **الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده**، ط7، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 2019)، ص ص537-553. أنظر أيضاً: د. ماجدة علي صالح، "منهج الإمام محمد عبده في إصلاح الأزهر"؛ (في) د. إبراهيم البيومي غانم، وصلاح الدين الجوهري "تحرير"، **الإمام محمد عبده: مائة عام على رحيله 1905 - 2005**، (القاهرة: دار الكتاب اللبناني المصري، 2009)، ص ص587-599. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن: الطفل - الطالب**، عمر مسقاوي "ترجمة"، ط2، (دمشق: دار الفكر، 1984).
- 15 - مالك بن نبي، **شروط النهضة**، مرجع سابق، ص ص30-31.

- 16 - مزيد من التفاصيل انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 102، 109.
- 17 - المرجع السابق، ص 105-107.
- 18 - سورة مريم: آية: 12.
- 19 - مالك بن نبي، تأملات، سلسلة مشكلات الحضارة، (دمشق: دار الفكر، 1979)، ص 38-39.
- 20 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 55.
- 21 - المرجع نفسه، ص 55-57.
- 22 - المرجع نفسه، ص 85-86.
- 23 - المرجع نفسه، ص 106، 109، 113-114.
- 24 - انظر: مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، سلسلة مشكلات الحضارة، ط2، (دمشق: دار الفكر، 2007)، ص 8. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 165. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، مجالس دمشق: محاضرات ألقى في عامي (1971-1972) حول دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، سلسلة مشكلات الحضارة، ط2، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 159-160. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، فكرة كومونيلث إسلامي، سلسلة مشكلات الحضارة، الطيب الشريف "ترجمة"، ط5، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 72-73. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، سلسلة مشكلات الحضارة، عبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط14، (دمشق: دار الفكر، 2009)، ص 111-112. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، من أجل التغيير، ط5، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 97. انظر أيضاً: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، سلسلة مشكلات الحضارة، عبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط2، (القاهرة: مكتبة النافذة، 2006).
- 25 - مزيد من التفاصيل انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 146-147، 153.
- 26 - مالك بن نبي، في مهب المعركة: إرهابات الثورة، سلسلة مشكلات الحضارة، ط7، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 129-130.
- 27 - المرجع السابق، ص 127.
- 28 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 153.
- 29 - مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 127.
- 30 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 153.
- 31 - مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص 129.
- 32 - المرجع نفسه، ص 130.
- 33 - المرجع نفسه، ص 130-131.

- 34 - المرجع السابق، ص131.
- 35 - انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص149-151. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص132، 134-135.
- 36 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص17.
- 37 - المرجع نفسه، ص17-18.
- 38 - المرجع نفسه، ص20.
- 39 - انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص48. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، سلسلة مشكلات الحضارة، ط9، (دمشق: دار الفكر، 2009)، ص47.
- 40 - انظر: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص45. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص47.
- 41 - انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص47-48. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص43-45. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص169. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، في مهب المعركة، مرجع سابق، ص117، 120.
- 42 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص84-85.
- 43 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص96.
- 44 - أنظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص34. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص96.
- 45 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص34.
- 46 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، سلسلة مشكلات الحضارة، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص97.
- 47 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص88.
- 48 - المرجع نفسه، ص96-97.
- 49 - انظر: المرجع نفسه، ص95-98، 100-104، 142-148. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص98-101.
- 50 - مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، سلسلة مشكلات الحضارة، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2005)، ص15-16.

- 51 - حمودة سعدي، مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، قسم فلسفه جامعة الجزائر، 1984، ص 244.
- 52 - المرجع السابق، ص 67.
- 53 - المرجع السابق، ص 71، 74-77، 87-88، 92-93.
- 54 - المرجع السابق، ص 70.
- 55 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 76-79.
- 56 - المرجع نفسه، ص 79.
- 57 - سورة آل عمران: آية: 144.
- 58 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 81-83.
- 59 - المرجع نفسه، ص 84.
- 60 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 45.
- 61 - المرجع نفسه، ص 57-58.
- 62 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 149، 156.
- 63 - المرجع نفسه، ص 149-150.
- 64 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 108-109.
- 65 - أنظر: المرجع نفسه، ص 109. أنظر أيضاً: محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، (دمشق: دار الفكر، 2007)، ص 84.
- 66 - مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، سلسلة مشكلات الحضارة، ط 6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 17-18.
- 67 - المرجع نفسه، ص 17.
- 68 - المرجع نفسه، ص 23-24.
- 69 - المرجع نفسه، ص 24-25.
- 70 - المرجع السابق، ص 14-16، 33-34.
- 71 - لمزيد من التفاصيل عن وسائل الصراع الفكري أنظر: مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مرجع سابق، ص 15-33، 34-16. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، سلسلة مشكلات الحضارة، د. عبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط 6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 82-84. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، القضايا الكبرى، سلسلة مشكلات الحضارة، ط 9، (دمشق: دار الفكر، 2009)، ص 167-196.

- 72 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص ص60-61.
- 73 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص56.
- 74 - المرجع نفسه، ص155.
- 75 - المرجع نفسه، ص155.
- 76 - المرجع نفسه، ص ص158-159.
- 77 - المرجع نفسه، ص159.
- 78 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص79.
- 79 - المرجع نفسه، ص80.
- 80 - المرجع نفسه، ص ص81، 121، 138.
- 81 - لمزيد من التفاصيل جدلية الاصاله والمعاصرة انظر: عبدا لله علي عمران، التيار العلمي في الفكر العربي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم فلسفه، جامعة عمر المختار، 2008، ص114.
- 82 - لمزيد من التفاصيل في تحديد العلاقة بين "الأصالة" و"المعاصرة" انظر: د. سعيد التكر، سؤال المعاصرة والشرعية: في قراءة النص القرآني، د. محمد عمارة "تقديم"، (القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2013)، ص121.
- 83 - د. طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، ط5، (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2009)، ص ص157-158.
- 84 - مالك بن نبي، تأملات، سلسلة مشكلات الحضارة، (دمشق: دار الفكر، 1979)، ص ص83-84.
- 85 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص152.
- 86 - سورة النساء: آية: 59.
- 87 - سورة آل عمران: آية: 159.
- 88 - سورة الشورى: آية: 38.
- 89 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص ص152-156.
- 90 - انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص34. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص96.
- 91 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص34.
- 92 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص99.
- 93 - المرجع نفسه، ص99.
- 94 - المرجع نفسه، ص ص99-107.

- 95 - المرجع نفسه، ص 99.
- 96 - أنظر: المرجع السابق، ص 99. أنظر أيضاً: مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، سلسلة مشكلات الحضارة، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 82-86.
- 97 - مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، سلسلة مشكلات الحضارة، ندوة مالك بن نبي "إشراف"، دمشق: دار الفكر، ط6، 2005، ص 21-23.
- 98 - المرجع نفسه، ص 20، 59، 91-93.
- 99 - المرجع نفسه، ص 18، 54-55، 96.
- 100 - المرجع نفسه، ص 56-57.
- 101 - المرجع نفسه، ص 87.
- 102 - المرجع نفسه، ص 87.
- 103 - المرجع نفسه، ص 87-88.
- 104 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، سلسلة مشكلات الحضارة، د. عبد الصبور شاهين "ترجمة"، ط6، (دمشق: دار الفكر، 2006)، ص 15.
- 105 - المرجع نفسه، ص 15، 17.
- 106 - المرجع نفسه، ص 17.
- 107 - المرجع نفسه، ص 18.
- 108 - المرجع نفسه، ص 27.
- 109 - المرجع نفسه، ص 37-41.
- 110 - المرجع نفسه، ص 56.